



رحلة معاذٍ إلى اليمن

المحاضرات

محاضرة في الأردن

2021-02-15

عمان

الأردن

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ: يَسْئَلُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يُفْعَلُ وَاتَّقِنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا، وَأَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا أَتْبَاعَهُ، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ، وَاجْعَلْنَا مِنْ مَنْ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وَأَدْخِلْنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.

مقدمة:

عنوان لقائنا اليوم: رحلة معاذٍ رضي الله عنه إلى اليمن، كما تعلمون فإن معاذَ بن جبل رضي الله عنه أحد الصحابة الكرام الذين أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة دعوية، مهمة دعوية إلى اليمن ليدعو الناس إلى الإسلام ويكون سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليمن، وكان في هذه الرحلة الجميلة دروسٌ وعبرٌ يمكن أن نستفيد منها.

فقد ثبت في الصحيح أن آخر عهد معاذٍ بن جبل رضي الله عنه برسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل سفره إلى اليمن، ودَّع رسول الله صلى الله عليه وسلم وداع المُحِبِّ لحبيبه وذهب إلى اليمن وتوقَّع بعد رحلةٍ دعويةٍ مباركةٍ، فالنبي صلى الله عليه وسلم في وداعه كان له جملةٌ من النصائح، وهنا موطن الشاهد الذي نريد أن نستفيدة: هذه النصائح التي نصح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذَ بن جبل.

مرتبة الخُلُقِ العالية:

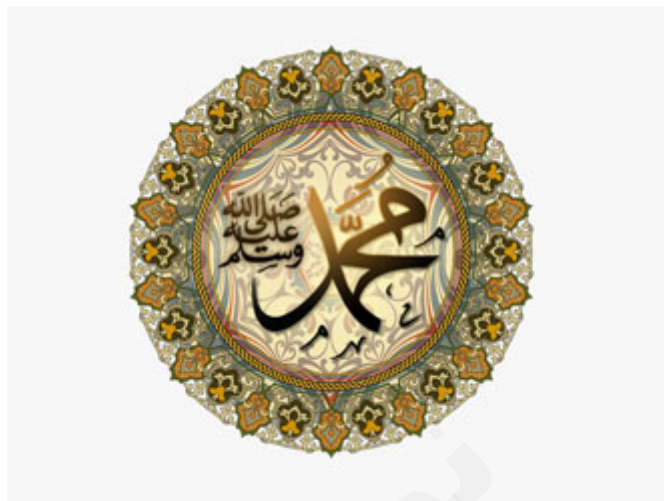
في صحيح البخاري:

{ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَّرَ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَصَّعْتُ رِجْلِي فِي الْقَرْزَرِ أَنْ قَالَ: "أَحْسِنُ

خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ" }

(صحيح البخاري)

(جَنَّ وَصَعْتُ رَجُلِي فِي الْغَرْزِ) البعير من أجل أن يمضي إلى سفره، (أَحْسِنُ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ) آخر وصية أوصاه بها عندما ودَّعه قال: (أَحْسِنُ خُلُقَكَ)، قالوا: "نحن إلى قليلٍ من الأخلاق أحوج إلى كثيرٍ من العلم".



تَبَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى خَلْقِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ
إخواننا الكرام! العمل يُحَصِّلُ بِالْمَدَارِسَةِ، بِالْمَتَابَعَةِ، لَكِنَّ الْخُلُقَ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ، لَمَّا أَتَى اللَّهَ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَكَانَ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِظَائِمِ الْأُمُورِ الْكَثِيرِ؛ فَهُوَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَحَبِيبُ الْحَقِّ، وَعِنْدَهُ مِنْ جَمَالِ الصُّورَةِ، وَعِنْدَهُ مِنْ حُسْنِ الْقِيَادَةِ، وَعِنْدَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ، وَعِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ الْغَزِيرِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

(سورة القلم)

وتعلمون جميعاً أن (عَلَى) في اللغة العربية تُفيدُ الاستعلاء، لذلك يقول الله تعالى في قرآنه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنَّ اللَّهُ صُدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوُّنٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۖ أُولَٰئِكَ فِي صَلَائٍ مُّبِينٍ (22)

(سورة الزمر)

(أُولَٰئِكَ فِي صَلَائٍ مُّبِينٍ) أي غارقون في صلاتهم، لكن عندما يتحدث عن المؤمنين يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

(سورة البقرة)

(أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) فالهـدى يأتي معه (عَلَى) لأن الإنسان عندما يهتدي فإنه يستعلي على أحوال البشر مما يخوضون به من الكلام السيء والغيبة والنميمة، فجاءت (عَلَى هُدًى) متمكنون من هداية ربهم، أما الصلال: فهم في صلاتهم يعمّهون، غارقون في الأحوال والشهوات.
فلما وصف نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أتى عليه قال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) أي أنت متمكّنٌ مِنَ الأخلاق، يمكن أن نقول: إننا ذو خُلُقٍ، لكن قليلٌ من الناس وعلى رأسهم الأنبياء يكونون عَلَى خُلُقٍ، ما الفرق بين أن تقول: فلان ذو خُلُقٍ، أو أن تقول: فلان عَلَى خُلُقٍ؟ إن قلت: فلان ذو خُلُقٍ، يعني صاحب خُلُقٍ، عنده أخلاق ولله الحمد، أما على خُلُقٍ فهو متمكّنٌ من أخلاقه، متمكّنٌ من الأخلاق بمعنى أنه لا يأخذ وقتاً لأخذ قراره فِي الصَّدَقِ أو فِي الْأَمَانَةِ لا يتردد، الصدق عنده مبدأ، أما الإنسان صاحب الأخلاق فقد يتردد أحياناً فتنازعه نفسه إلى قبض مبلغٍ مِنْ حرامٍ ثُمَّ يَعْثُ عنه خوفاً من الله، أما لما يتمكّن الإنسان من الأخلاق فيمجرد أن يرى قرشاً فيه شبهةٌ يقول لك: لا أخذه، لأنه أصبح على خُلُقٍ، هذا معنى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

الحض على التعبير عن المشاعر:

فصاحب الخلق صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يوصي حبيبه معاذاً؛ وأقول: حبيبه؛ لأنه قال له يوماً:

{ عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ يَدَيْهِ وَقَالَ: يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، ثُمَّ أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ

فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ {

(رواه أبو داود والنسائي)

(يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ) وتخيّلوا كيف قضى معاذ تلك الليلة بعد أن قال له الحبيب: (إِنِّي لأُحِبُّكَ)، ثم أوصاه فقال: (لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ).



المؤمن لا يبخل في التعبير عن مشاعره

(يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ) وعلمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أحببنا آخر أن نعلمه بذلك، بعض الناس يصنّون بالمشاعر، عندهم بخل بالمشاعر، يحمل في قلبه مشاعر الحب لزوجته ولأولاده وإخوانه لكنه يبخل بالكلمة، يجوذ عليهم بالمال وبالطعام وبالشراب لكنه يرى أنه ليس من المناسب أن يقول لزوجته: إِنِّي أَحِبُّكَ، مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: الحمد لله الذي رزقني حُبَّهَا، حُبَّ حَديجة رضي الله عنها.

{ عَنْ غَائِشَةَ قَالَتْ: مَا غِزْتُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا عَلَى حَديجة وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ إِذَا دَبَّحَ الشَّاةَ، يَقُولُ: «أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ حَديجة» قَالَتْ: فَأَعْصَيْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ حَديجة: فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا» {

(رواه مسلم)

ولمّا سُئِلَ في محفلٍ مِنْ أصحابه:

{ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قِيلَ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُو هَارٍ {

(صحيح ابن ماجه)

فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يترك التعبير عن المشاعر:

{ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعَلِّمُهُ إِنِّيَاهُ }

(رواه الترمذي)

{ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنِّي لِأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَعَلَمْتَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَعَلِّمُهُ، قَالَ: فَلَحِقَهُ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ {
(رواه أبو داود)

فما الذي يمنع أن يُعَبَّرَ الإنسان عن مشاعره لأولاده، لزوجته، لأحفاده، لمن حوله من الأصدقاء.
فالنبي صلى الله عليه وسلم علَّمنا ذلك مع معاذ فأعلمه بأنه يُحِبُّه، فلذلك أقول: أوصى حبيبه، فقال له: (أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ).

الإحسان في الدعوة إلى الله:

الناس أيها الكرام؛ ما الذي يَشُدُّهم إلى الدِّين؟ الآن معاذ ذاهب في رحلة دعوية لو دخل إلى الناس فطأ غليظ القلب - حاشاه أن يفعل ذلك وهو خَرَّيج المدرسة المحمدية - لو دخل إلى الناس بفضاطة وبغلاظة مهما يحمل من عِلْمٍ ومهما يأت من دعوة فإنهم سينفرون منه لأن الله تعالى خاطب نبيه الكريم فقال له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَيَمَّا رَحِمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظًا أَلْقَيْتَ لَآبِقَعُصَا مِنْ حَوْلِكَ ۚ قَاعَفْتُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)

(سورة آل عمران)

فلماذا يكون عند بعض الدعاة فضاظةً وغلظةً، ومع أن الله تعالى ما أراد ذلك لنبيه الذي أوتي الوحي، فنحن أولى الناس بأن نتباعد عن الفضاظة في الدعوة، وعن الفضاظة في النصيحة وفي الإرشاد.
لما جاء رجل إلى هارون الرشيد وقال له: سأعطيك، وأغلط عليك، قال: ولم الغلظة يا أخي، لقد أرسل الله تعالى من هو خير منك إلى من هو شرُّ مني، أرسل موسى إلى فرعون، قال له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)

(سورة طه)

فنحن نحتاج إلى القول اللين، فهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعه بهذه الوصية: آخر ما أوصاه به قال (أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ).
أنت تكسب قلوب الناس بالإحسان، لذلك قالوا: (الإحسان قبل البيان)، قيل أن تتكلم أحسن يُصبح لكلامك معنى مختلف، الناس يُحبون الكلمة الطيبة ويُحبون الابتسامة الصادقة، يُحبون الصدق والأمانة فهذا كله من حسن الخلق، فأوصاه وصيته فقال: (أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ).

نماذج عن الأدب عند النبي الكريم والصحابه الكرام:

الآن حديث آخر أيضاً وكل الأحاديث في رحلة اليم:

{ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ يُوصِيهِ، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي تَحْتَ رَاجِلَيْهِ، فَلَمَّا قَرَعَ قَالَ: " يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ عَسَىٰ أَلَّا تَلْقَانِي بَعْدَ غَامِي هَذَا، وَلَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا وَقِيرِي ". فَبَكَى مُعَاذٌ جَسَعًا لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ اتَّعَتْ يَوْجَهُمُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: " إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا " (رواه الإمام أحمد)

(لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ يُوصِيهِ) انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأنف وهو قائد الأمة أن يخرج مع جنديٍّ من جنوده أو مع سفيرٍ من سفرائه ليسير معه وبودعه، (وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي تَحْتَ رَاجِلَيْهِ) انظروا إلى هذا الأدب النبوي، عندما يؤدب الله نبيه صلى الله عليه وسلم، هذا الأدب.



تَعْلَمُ الصَّحَابَةُ لِلأَدَبِ مِنْ مَدْرَسَةِ النَّبِيِّ

هذا يُدَكِّرُنَا بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يَوْمَ سَبَرِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الْجَيْشَ، جَيْشَ أُسَامَةَ، وَأَنْفَذَ بَعَثَ أُسَامَةَ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بِوَدْعِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَأُسَامَةَ عَمْرَهُ فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ، فَائِدَ الْجَيْشِ، وَأَبُو بَكْرٍ مَنْ هُوَ فِي الْفَضْلِ وَالْعَمْرِ فَيَقُولُ لَهُ أُسَامَةُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ، لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ أَكُونَ رَاكِبًا وَأَنْتَ مَاشٍ، فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا نَزَلْتُ وَلَا رَكِبْتُ وَمَا عَلَيَّ أَنْ أَتَّخِذَ قَدَمِي سَاعَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ يَسْتَأْذِنُهُ، أَبُو بَكْرٍ، يَسْتَأْذِنُ أُسَامَةَ أَنْ يُبْقِيَ لَهُ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَدِينَةِ مَعَهُ لِيُعِينَهُ عَلَى أَعْيَاءِ الْحَكْمِ، يَسْتَأْذِنُهُ لِأَنَّهُ فَائِدَ الْجَيْشِ الْآنَ، هَذِهِ التَّرَاتِيبُ تَعَلِّمُنَا أَنَّهُ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ الْفَاضِلَ الْمَفْضُولَ، أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ فِي وَقْتِهَا لِأَنَّهُ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لَكِنْ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَسْتَأْذِنَ أُسَامَةَ الَّذِي هُوَ يَعْمُرُ أَبْنَاءَهُ لَكِنْ هُوَ الْآنَ فَائِدَ جَيْشٍ وَهَؤُلَاءِ الْجُنُودُ جُنُودُهُ فَاسْتَأْذَنَهُ بِأَنْ يُبْقِيَ لَهُ عَمْرُ، فَهَذَا سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ تَعَلَّمَ ذَلِكَ مِنْ مَدْرَسَةِ النَّبِيِّ، فَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ.

ثم تكرر الأمر نفسه بعد عشرة أعوام أو أكثر يوم خرج عمر بن الخطاب إلى القدس إلى فلسطين ليتسلم مفاتيح القدس، فكان مع أبي عبيدة بن الجراح ومع الخادم، فأصبح يجعل نوبة لكل واحدٍ على الناقية، على الراخلة، فلما وصلوا كان دوره في المشي وجاء الوحل فرفع ثيابه وغاص في الوحل، فيقول له أبو عبيدة: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَحَبُّ أَنْ الْقَوْمَ اسْتَشْرَفُوا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْحَالِ! فَقَالَ لَهُ قَوْلُهُ الرَّائِعَةُ الَّتِي أَصْبَحَتْ مَثَلًا يُضْرَبُ: "نَحْنُ قَوْمٌ أَعَزُّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَهَمَّا ابْتِغَيْنَا الْعِزَّةَ بَعِيرَهُ أَذَلَّنَا اللَّهُ".



نَحْنُ قَوْمٌ أَعَزُّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ

قَالَ لَهُ: لَوْ غَيْرَكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، أَنْتَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْتَبِيَ بِهَذَا الْأَمْرِ، الْأَمْرُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، "أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ"، وَهَذَا أَثَرُ الْكِرَامِ؛ قَانُونٌ يَنْبَغِي أَنْ يَسْرِيَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَقُولُونَ: يَا أَخِي مَا زِلْنَا مِنْ دَلٍّ إِلَى دَلٍّ وَمِنْ ضَعْفٍ إِلَى ضَعْفٍ، مَعَ أَنْبِيِ وَاللَّهِ اسْتَشْرَفَ خَيْرًا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرَى أَنَا تُكْثِرُ مِنْ جِلْدِ الذَّاتِ وَأَنْ فِينَا مِنْ الْخَيْرِ مَا فِينَا وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَزِيدَ هَذَا الْخَيْرَ وَيُعِمَّ، صَحِيحٌ أَنَا فِي ضَعْفٍ وَفِي هَوَانٍ لِأَنَّا تَرَكْنَا الْقَانُونَ الْعَمَرِي، الْقَانُونَ الْعَمَرِي: "نَحْنُ قَوْمٌ أَعَزُّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَهَمَّا ابْتِغَيْنَا الْعِزَّةَ بَعِيرَهُ أَذَلَّنَا اللَّهُ"، هُنَاكَ أَقْوَامٌ آخَرٌ مَا أَعَزَّهُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، هُمْ اعْتَزَلُوا بِغَيْرِ اللَّهِ فَتَرَكَهُمُ اللَّهُ لَمَّا اعْتَزَلُوا بِهِ، فَلَرُبَّمَا تَفَوَّقُوا عَلَيْنَا حِينَ وَقَوَانِينُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ عَنَّا لَكِنْ نَحْنُ أَعَزُّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَا مِنْ زَمَنٍ كُنَّا فِيهِ مَتَمَسِّكِينَ بِدِينِنَا إِلَّا كَانَتْ لَنَا الْقُوَّةُ وَالْعِزَّةُ وَالْقَلْبِيَّةُ وَكَانَتْ الْبِلَادُ بِأَيْدِينَا وَكَانَتْ الْقُدُسُ لَنَا، وَلَمَّا جَدْنَا عَنِ الطَّرِيقِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ السَّنَةَ مَاصِيَةً، مَا إِنْ تَجَدَّ عَنِ طَرِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى تُضْرَبَ عَلَيْنَا الذَّلَّةُ وَالضَّعْفُ وَالْهَوَانُ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَفَرِّجَ وَأَنْ يَجْعَلَ لَنَا بَعْدَ عَسْرِ سَنَةٍ.

فَتَذَكَّرْتُ كَيْفَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ، فَجَاءَنِي ذَكَرُ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ مَشَى وَأُسَامَةُ رَاكِبٌ، ثُمَّ ذَكَرَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمَ مَشَى وَغُلَامُهُ رَاكِبٌ، فَكُلُّهُمْ خَرَجُوا مَدْرَسَةً وَاحِدَةً إِنَّهَا مَدْرَسَةُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

الإسلام يجمعنا على العقيدة:



المفهوم الأوسع لآل بيت الرسول الكريم

(إِنَّكَ عَسَىٰ أَن تَلْقَانِي بَعْدَ غَايِي هَذَا) لعَلَّه يكون الوداع، (فَبَكَى مُعَاذُ) علم أنه الوداع، (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِبَيْتِ الْمُتَّقِينَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا) هنا سامحوني.. آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على العين والرأس، ونحن نتقرب إلى الله بحب آل بيته، لكن هناك مفهوم لآل البيت أوسع بقليل من مفهوم آل البيت بمعنى أهل البيت؛ وهذا ذكره أهل العلم وليس من عندي؛ المفهوم الواسع لأهل البيت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحِمْتَ اللَّهُ وَتَرَكَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ النَّبِيِّ ۖ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

(سورة هود)

(أَهْلَ النَّبِيِّ) هم الْمُتَّقُونَ أين كانوا وَحَيْثُ كَانُوا، (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِبَيْتِ الْمُتَّقِينَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا) قَالَ بيته صلى الله عليه وسلم هم الْمُتَّقُونَ مِنْ أُمَّتِهِ، وهذا أوسع مفهوم، وهذا المفهوم قريب من قصة نوح مع ابنه، ابنه كان كافراً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتَادَىٰ نُوحٌ لَّرَبِّهِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45)

(سورة هود)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46)

(سورة هود)

ويشبه تماماً أبا لهب، والله تعالى يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

وفي المقابل وَرَدَ: وإن كان فيه ضعفٌ:

{ جاء عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **سَلَمَانٌ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ** }

(أخرجه الطبراني)

وسلمان فارسيّ لكن النبي صلى الله عليه وسلم جعله من أهل بيته، وصهيب الرومي:

{ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: أَقْبَلَ صُحَيْبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُهَاجِرًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْهُ تَقَرُّ مِنْ قُرَيْشٍ، فَتَزَلَّ عَنْ رَاجِلَيْهِ، وَاسْتَلَّ مَا فِي كِتَابَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْوَاحِكُمْ رَجُلًا، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أُرْمِيَ كُلَّ سَهْمٍ مَعِيَ فِي كِتَابَتِي، ثُمَّ أَصْرَبَ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ أَفْعَلُوا مَا سَنَنْتُمْ، وَإِنْ سِنَنْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَا لِي دَفِئْتِي بِمَكَّةَ، وَخَلَيْتُمْ سَبِيلِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، تَقْبَلُ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، قَالَ: **رِيحُ الْبَيْعِ أَبَا يَحْيَى، رِيحُ الْبَيْعِ أَبَا يَحْيَى** قَالَ: وَتَزَلَّتْ: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْشِرُ نَفْسَهُ ابْنِعَاءَ مَرْصَادِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} }

(رواه ابن أبي حاتم في التفسير)

يقول له: (**رِيحُ الْبَيْعِ أَبَا يَحْيَى، رِيحُ الْبَيْعِ**).

وبلال الحبشي؛ كان الصحابة يقولون: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَتَنَا، فيقولون لبلال الحبشي وهو من الحبشة هو سَيِّدُنَا، وهو مِنَ الحبشة، فالإسلام أممي. الإسلام يجمعنا على العقيدة لا يجمعنا على النسب، أعيد وأكرر النسب على العين والرأس، لا أنكر أهمية النسب في الإسلام لكن هو تاج بعد الإيمان والخلق، فإذا فُيِّدَ الإيمان والخلق فلا قيمة للنسب.

{ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ }

(أخرجه مسلم)

{ يَا فَاطِمَةُ، أَتُفِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَفْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا }

(صحيح مسلم)

الإسلام أهل بيته هم المسلمون والمُتَّقُونَ في أي زمان كانوا ومن أي عرق كانوا وحيثما كانوا فهذا يؤكد الآن النبي صلى الله عليه وسلم لما ودَّع معاداً: (**الْتَقَتْ بِوُجْهِهِ تَحْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِالنُّفُوسِ مَن كَانَوا وَحَبَّتْ كَانُوا**).

{ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: إِيَّاكَ وَالتَّعَمُّ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيُسَوُّوا بِالْمُتَعَمِّينَ }
(رواه الإمام أحمد)

التحذير من التَّعَمُّ في الدنيا:

أيضاً هذا في الصحيح، لكن هنا يحتاج الأمر إلى شرح، ما منا إنسانٌ إلا ويتَّعَمُّ بالدنيا، ولا يمنع شريعاً أن يأخذ الإنسان من نعيم الدنيا، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أصاب طعماً وأكل ثمراً وشرب ماءً قال والله إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ثم قرأ قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ لِنُسْأَلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

(سورة التكاثر)



التَّعَمُّ وسيلة وليس غاية

فكلنا نتَّعَمُّ بالدنيا، فما معنى (إِيَّاكَ وَالتَّعَمُّ)؟ يحذرنا من التَّعَمُّ، التَّعَمُّ من تَتَّعَمُ أي جعل قصده في الحياة التَّعَمُّ فاستهدفه فأصبح همُّه التَّعَمُّ، وهنا المشكلة، التَّعَمُّ وسيلة وليس غاية، فقال العلماء: المقصود بالحديث إِيَّاكَ أن تجعل التَّعَمُّ غايته في الحياة، غايته رضاوان الله، وتتَّعَمُ ما دام هذا التَّعَمُّ في طاعة الله، فإذا وجدت أنه سيؤدِّي بك إلى معصية تركته، أو إذا وجدت أنه معصية في حد ذاته كَمَنْ يتَّعَمُّ بالشهوة الحرام والعياذ بالله أو بالمال الحرام فهذا بعيدٌ عن مقصد الحياة، نحن مخلوقون في الدنيا لهدفٍ وهذا الهدف هو تحقيق رضاوان الله تعالى وعبادته على الوجه الكامل بالطريقة التي شرعها جلَّ جلاله، العبادة بمفهومها الواسع لا بمفهومها الضيق، فكلُّ حركةٍ في الحياة يُبتغى بها وجه الله وتأتي وفق شرع الله فهي عبادة، فالطبيب في عبادته يعبُد الله، والنجار في منجرته يعبُد الله، وعامل النفايات الذي يعمل في الوطن لِيَلْمَ النفايات يعبُد الله بعمله، مفهوم العبادة واسع جداً كلُّ إنسانٍ في مهنته، مع أهله، ربما في نزهته مع أهله فهو يعبُد الله ما دامت حركته وفق منهج الله وابتغى بما يفعله وجه الله فهو في عبادة، هذا المفهوم العام للعبادة، أما العبادات الشعائرية: الصلاة والصيام والزكاة والحج هي جزءٌ من العبادات وهي أركان الإسلام وثني الإسلام عليها لكن الإسلام كله عبادة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

(سورة الذاريات)

لأن بعض الناس يفهمون أن العبادة هي تلك العبادات الشعائرية الخمس، فيقول لك: هل الله عزَّ وجلَّ يريد صلاتنا وصيامنا؟ لا، الله تعالى يريد أن تعبده بمعنى العبادة الواسع الكلي الذي يعمُر الأرض بالخير.

فهنا (إِيَّاكَ وَالتَّعَمُّ) يُحذِّره من أن يصبح النعيم هدفاً له في الحياة، قلت لكم: إنني فرأت لبعض علماء النفس أنهم يقولون: "إذا استهدفت اللذة في ذاتها انقلبت إلى شقاء".

أي لذة تستهدفها تنقلب إلى شقاء، الإنسان الذي يستهدف النساء- شهوة النساء- ممَّا حلَّ أو ممَّا حُرِّم بعد حين هذه اللذة تنقلب إلى شقاءٍ عليه، يَمَلُّها، فتصبح مصدر تعاسةٍ بعد أن كانت مصدر سعادةٍ فيما يظن، فاللذة لا تُستهدف وإنما تكون وسيلةً لغاية، فنحن نتَّعَمُّ بالدنيا بطاعة الله وبما يَرْضَى الله لا مانع، لكن لا نتَّعَمُّ بالدنيا لأننا لم نُخْلَقْ للتَّعَمِّ، يعني لا نجعل التَّعَمُّ هدفاً، هذا هو معنى الحديث.

الدنيا همُّ من الهموم:

الأمر الآخر: الله تعالى في قرآنه يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَيْتُمْ طُبَّائِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

(سورة الأحقاف)

هو جعل الدنيا أكبر همِّه فأذهب طيباته في الحياة الدنيا، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول:

{ قَلَمًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُو يَهْؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ لِأَصْحَابِهِ: اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمَنْ طَاعَتِكَ مَا تَبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّاتِكَ، وَمَنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّئُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَتُعِنُنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقَوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ
الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا،
وَلَا تَسْلُطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا }

(صحيح الترمذي)



الهمُّ الأكبر هو الآخرة

(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا) ولم يقل: اللهم لا تجعل الدنيا همًّا، انظر إلى دقة اللفظ النبوي: لو قال: اللهم لا تجعل الدنيا همًّا، مَنْ مِنَّا لَا يَهْتَمُّ لِلدُّنْيَا؟ أَنْتَ الْيَوْمَ فِي
تِجَارَتِكَ عِنْدَكَ مَشْكَلَةٌ فَلَا تَنَامُ اللَّيْلُ، هَذَا وَاقِعٌ، إِذَا مَرَضَ ابْنُكَ - نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ لِلْجَمِيعِ - تَقْلُقُ عَلَيْهِ وَتَسْهَرُ عَلَى رَاحَتِهِ، مَنْ مِنَّا لَا يَهْتَمُّ لِلدُّنْيَا؟ لَكِنْ لَيْسَتْ أَكْبَرُ الْهَمِّ، مَا أَكْبَرُ
هَمُّنَا؟ الْآخِرَةُ، أَكْبَرُ الْهَمِّ هُوَ الْآخِرَةُ، الدُّنْيَا هَمٌّ مِنَ الْهَمَمِ لَكِنْهَا لَيْسَتْ أَكْبَرُ الْهَمِّ، قَالَ: (وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا) لِأَنَّ مَبْلَغَ الْعِلْمِ أَنْ تَصِلَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ، أَمَّا الدُّنْيَا لَيْسَتْ مَبْلَغُ الْعِلْمِ،
مَهْمَا بَلَغَتْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعِلْمِ فَهِيَ جُزْءٌ.

فيا أحببنا الكرام: قال: (إِيَّاكَ وَالتَّوَكَّلْ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيُسْوُوا بِالْمَتَّعِيِّينَ).

رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده:

عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: وَهَذَا أَيْضًا يَبْدُو فِي رَحْلَةِ الْيَمَنِ كَمَا هُوَ سِيَاقُ الْحَدِيثِ:

{ يَا مُعَاذُ، أَتَبِعِ السَّبِيَّةَ الْحَسَنَةَ تَمْجُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنِ }

(رواه الترمذي)

(أَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ نَمَحُهَا) أي تمحو الحسنه السيئه، (وَخَالَقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ) وهذا مستفاد من حديث آخر في الصحيح وهو من جوامع الكلم مما جعله العلماء على رأس الأبواب في الشريعة قوله صلى الله عليه وسلم:

{ عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنِّي اللَّهُ خَيْئَمَا كُنْتُ وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ نَمَحُهَا،

وَخَالَقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ" }

(رواه الترمذي)

كلنا ذو خطأ من لا يقع في الخطأ؟

{ كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ }

(رواه الترمذي)

لكن المؤمن إذا وقع في سيئة أتبعها بالحسنة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْخَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرُكَ لِلذَّاكِرِينَ (114)

(سورة هود)

الحسنة تذهب السيئة وهذا من رحمة الله عز وجل بنا.

أحياناً في القوانين الوضعية؛ مدير شركتي ليس عنده في قانونه (إِنَّ الْخَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ) يُسَجَّلُ عليك كل شيء، إن صنعت معروفاً أذهب منكراً، لكن الله عز وجل من رحمته بنا إذا وقعت في سيئة فأتبعها بالحسنة تذهب السيئة، انتهى الأمر، هذا من رحمة لله.

الفرق بين المغفرة والصفح والعفو:

والله أيها الكرام: لولا أن الله فتح لعباده هذه الأبواب أبواب الرحمة لضافت علينا الأرض بما رحبت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

(سورة التوبة)

مَنْ مِنَّا لَا يُذْنِبُ؟! وإذا كنا نعلم أن لنا رباً رحيماً يغفر الذنب ويتجاوز عن الدَّلة ويعفو ويصفح ويغفر، الله تعالى يعفو ويصفح ويغفر، وأمرنا فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّمَّنْ عِنْدَ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)

(سورة البقرة)



المغفرة هي السِّر

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا) واغفروا، والمغفرة هي السِّر، ألا نقول: جمع غفير، ما معنى جمع غفير؟ من كثرة الناس غطى تجمعهم وجه الأرض فقالوا: جمع غفير، فَعَفَّرَ مِنَ الْغَطَاءِ، ومثلها كَفَّرَ نَسَالَ الله العافية مِنَ الْغَطَاءِ، كَفَّرَ وَعَقَّرَ التَّغْطِيَةَ، الكافر غطى عينه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101)

(سورة الكهف)

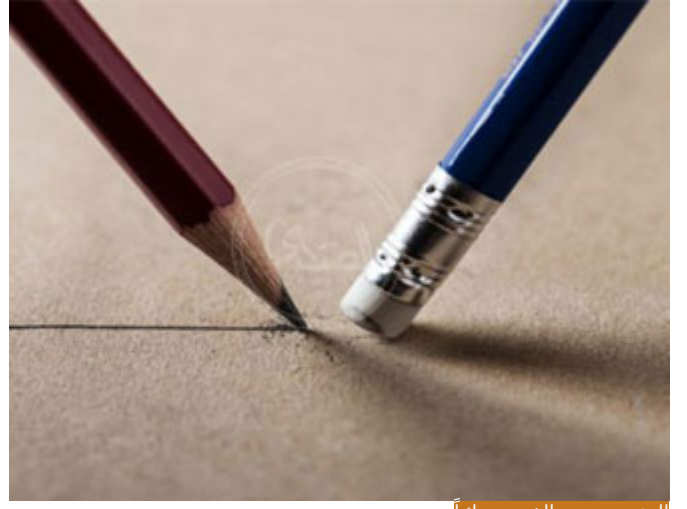
فَعَطَّى عَيْنَهُ عَنِ الْحَقِّ فَسَمِّيَ كَافِرًا لِأَنَّهُ غَطَّى أَعْيُنَهُ، والله تعالى عندما يستر ذنبك فهو يغفره، يعني أنت تذنّب ولم يعلم أحد، غَطَّاهَا لَكَ، هذه المغفرة، أما الصَّفْحُ، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفْتَضِرُّبُ عَنْكُمُ الذُّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ (5)

(سورة الزخرف)

فَنَقُولُ: صَفَحَ عَنْهُ: أَيِ أَعْطَاهُ صَفْحَةً وَجْهَهُ، أَنْتِ إِذَا رَأَيْتِ إِنْسَانًا يَقَعُ فِي الذَّنْبِ أَمَامَكَ أَوْ وَقَعَ فِي مَوْقِفٍ مُحَرِّجٍ يَا أَخِي وَلَيْسَ بِالذَّنْبِ أَنْسَبُ شَيْءٍ تَفْعَلُهُ أَنْ تُدِيرَ وَجْهَكَ، تَغَاضَى، تَغَافَلَ، مِنْ خُلُقِ الْمُؤْمِنِ التَّغَافُلُ.

يَقَالُ إِنَّ حَاتِمَ الْأَصَمِّ سَمِّيَ الْأَصَمَّ لِأَنَّهُ كَانَ قَاضِيًا فَدَخَلَ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ وَزَنَاهَا ثَقِيلَ فَأَرَادَتْ أَنْ تَصْعَدَ إِلَيْهِ فَخَرَجَ مِنْهَا صَوْتُ أَجَلَّكُمْ اللَّهُ، فَأُجْرِجَتْ إِجْرَاجًا عَظِيمًا مِنْهُ وَاحْمَرَّتْ وَجْهَهَا أَمَامَ الْقَاضِي، وَصَلَتْ إِلَيْهِ تُرِيدُ أَنْ تَحَدِّثَهُ عَنْ زَوْجِهَا، فَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي، فَقَالَ: ارْفَعِي صَوْتَكَ لَا أَسْمَعُكَ، فَرَفَعَتْ، قَالَ: لَا أَسْمَعُ، أَنَا سَمِعْتُ خَفِيفًا، فَادَّارَتْ وَجْهَهَا إِلَى أُخْتِهَا الَّتِي مَعَهَا قَالَتْ لَهَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ لَمْ يَسْمَعْ، فَسَمِيَ الْأَصَمُّ وَهُوَ لَيْسَ أَصَمًّا لِأَنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ هَذَا الشَّيْءِ، أَمَّا بَعْضُ النَّاسِ إِذَا رَأَى إِنْسَانًا وَقَعَ فِي مَوْقِفٍ مُحَرِّجٍ يَضَعُ عَيْنَهُ عَلَيْهِ فَوْرًا، لَيْسَ هَذَا مِنَ الْأَدَبِ، يَجِبُ أَنْ تَتَغَاضَى عَنْهُ، فَالصَّفْحُ أَنْ تُعْطِيَهُ صَفْحَةً وَجْهَكَ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَسْتُرُكَ وَمِنْ لَطْفِهِ أَنَّهُ يَصْفَحُ عَنْكَ.



العفو هو محو الذنوب نهائياً

أما العفو فيقال: عفت الآثار، أثار الأقدام عقت يعني مُسحت بشكل كامل، ذهبت، مسحها نهائياً، فالله تعالى يتعامل مع ذنوبنا بأنه يغفرها، يسترّها عن الناس، ويصفح عنها بمعنى أنه يتجاوز عنها ولا يدركك بها ولا يُحْجِلْكَ بها، وأنه يعفو بمعنى أنه يمحوها نهائياً من صحيفتك فتأتي يوم القيامة فلا تجدها، غير مسجلة، انتهت، فإذا بقي شيء عليك يتابع عفوهُ جلّ جلاله يوم القيامة، إذا بقي شيء يتابع عفوهُ، فجاء في الحديث:

{ بَيِّنَا أَنَا أُمِّيَنِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَحَدُ يَدَيْهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُدَيُّ الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَتَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَنْعِرْ دَنْبَ كَذَا؟ أَنْعِرْ دَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا فَرَّرَهُ بِدُثُوبِهِ، وَرَأَى فِي تَفْسِيهِ أَنَّهُ هَلَكٌ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ يَوْمَ، فَيُطْعَمُ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُتَأَفِّفُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: { هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الطَّالِبِينَ } [هود: 18]

(صحيح البخاري)

فالله تعالى يغفر ويصفح ويعفو فما أكرمهُ مِنْ إله، فما رُبُّ فعلنا نحن؟ إذا وقعنا في الذنب أن نبادر إلى بابه فوراً، ألا نتأخّر عليه. إذاً أيها الكرام: **أَتَبِيعُ السَّبِيَّةَ الْحَسَنَةَ تَمْخُهَا** هذا العفو، المحو نهائياً، تُلغى، **(وَخَالِيَ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ)** خالني: أي عامل، فيه فعل مبادلة، مشاركة، لأنه قال: قاتل بمعنى القتال من الطرفين، عامل معاملة من الطرفين، خالقه أي عامله بخُلُقٍ حسنٍ، وذكرنا مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ: التواضع والوفاء والحب والخير وكل ما يندرج تحت الأخلاق الحسنة.

سيدنا معاذ في نهاية رحلته:

معاذ بن جبل أصيب بالطاعون في الشام فكان يُعَشَى عَلَيْهِ-يُغِيبُ عَنِ الْوَعْيِ قَلِيلًا- فَإِذَا أَقَارَقَ قَالَ: (اللَّهُمَّ غَمِّبْ عَمَّكَ) هُمُ الله، هُمِّي رِضَاكَ، (إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَجُبُّكَ)، فلما حضرته الوفاة، قَالَ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لَبَلَةٍ صَبَاخَهَا إِلَى النَّارِ، مَرْجَتَا بِالْمَوْتِ، مَرْجَتَا، رَائِزٌ جَاءَ بَعْدَ غِيَابٍ، وَحَبِيبٌ وَقَدْ عَلَى شَوْقٍ)، ثم نظر إلى السماء وقال: (اللَّهُمَّ أَنِّي كُنْتُ أَخَافُكَ لَكِنِّي الْيَوْمَ أَرْجُوكَ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحِبُّ الدُّنْيَا وَطُولَ الْبَقَاءِ فِيهَا لِعَرْسِ الْأَشْجَارِ، وَخَزْيِ الْأَنْهَارِ، وَلَكِنْ لَطَمًا الْهَوَاجِرِ، وَمَكَابِدَةَ الشَّاعَاتِ، وَمَرَاحِمَةَ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ عِنْدَ جَلْقِ الذِّكْرِ، اللَّهُمَّ فَتَقَبَّلْ تَفْسِي بِخَيْرٍ مَا تَقَبَّلُ بِهِ تَفْسًا مُؤْمِنَةً)، ثم فاضت روحه.

بين الخوف والرجاء:

شرح الكلام: (اللَّهُمَّ أَنِّي كُنْتُ أَخَافُكَ لَكِنِّي الْيَوْمَ أَرْجُوكَ) أَرْجُوكَ: المؤمن في لحظات الموت ينتقل مِنْ حَالِ الْخَوْفِ إِلَى حَالِ الرَّجَاءِ، يعيش على حال الخوف فلماً تحضره الوفاة يأتيه الرجاء برحمة الله، يغلب عليه الرجاء وهذا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْإِنْسَانِ.

سيدنا عمر بن عبد العزيز كان كلما دخل دار الخلافة قرأ قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقْرَأْتُ إِنْ مَتَّعْتَهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَنَعُونَ (207)

(سورة الشعراء)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

(سورة القصص)

فعاش على الخوف وخيم له بالرجاء، ومعاذ بن جبل عاش على الخوف من الله وخيم له برجاء رحمة الله، (اللَّهُمَّ أَنِّي كُنْتُ أَخَافُكَ لَكِنِّي الْيَوْمَ أَزُجُّوكَ)، وقد جاء في الحديث القدسي:

{ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، إِذَا أَمَّنِي فِي الدُّنْيَا أَحَفَّنُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنَنُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) }

(أخرجه ابن حبان)



معادلة الأمن والخوف

(لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ) أَمْنَيْنِ لَا يَوْجِدُ، وَخَوْفَيْنِ لَا يَوْجِدُ، (إِذَا أَمَّنِي فِي الدُّنْيَا أَحَفَّنُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنَنُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) هِيَ مَعَادِلُهُ عِنْدَكَ أَمْنٌ وَخَوْفٌ، اخْتَرِ مَاذَا تَرِيدُ أَوَّلًا، إِذَا كُنْتَ نَاجِحًا فَالْحَاقِ نَسَالَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ هَؤُلَاءِ نَخْتَارُ أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ أَوَّلًا لِأَنَّ الْخَوْفَ مَحْدُودٌ، سَنَوَاتٌ مِنَ الْخَوْفِ بَعْدَ ذَلِكَ يَوْجِدُ أَبَدُ الْآبِدِينَ، وَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمَا أَنْ يَأْمَنَ مَكَرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَأْمَنَ غَضَبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَفْعَلُ مَا يَحُلُو لَهُ فِي السَّنَوَاتِ الْمَحْدُودَةِ فَلْيَتَجَهَّزْ لَخَوْفٍ إِلَى الْآبِدِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، (لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ).

فقال: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحِبُّ الدُّنْيَا وَطَوَّلَ التَّبَقُّاءَ فِيهَا لِعُرْسِ الْأَشْجَارِ، وَخِزْيِ الْأَنْهَارِ) لَمْ يَكُنْ هَدَفِي مَادِيًّا، لَمْ يَكُنْ هَدَفِي مَزَارِعَ وَكَذَا أَبَدًا، (وَلَكِنْ لَطَمًا الْهَوَاجِرَ) الطَّمَا هُوَ الْعَطَشُ، الْهَوَاجِرُ جَمْعُ هَاجِرَةٍ وَهِيَ الصَّحْرَاءُ، يَعْنِي كَانَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، طَمًا الْهَوَاجِرَ، كِتَابَةً عَنِ الْجِهَادِ وَالتَّعَبِ.

قال: (وَمَكَابِدَةُ السَّاعَاتِ) التَّعَبُ، الْكَبْدُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4)

(سورة البلد)

يعني في تعبٍ ورهق، فكان يُحِبُّ الدُّنْيَا مِنْ أَجْلِ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ حَتَّى يُقَدِّمَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(وَمَرَّاحَةُ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ عِنْدَ جَلْقِ الذِّكْرِ) حُضُورُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ، (اللَّهُمَّ فَتَقَبَّلْ نَفْسِي بِخَيْرٍ مَا تَقَبَّلُ بِهِ نَفْسًا مُؤْمِنَةً) ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ.

مصادر التشريع في الإسلام:

هذه رحلة اليمين جمعك فيها الأحاديث الشريفة التي صَحَّت عن معاذ بن جبل أنه ذهب إلى اليمين وأوصاه النبي صلى الله عليه وسلم بها، هناك حديثٌ إتماماً للفائدة؛ وهذا له علاقة بالأصول أو بالفقه وهو أصل في بابه:

{ عَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ " كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ "، قَالَ أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ " فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ "، قَالَ: فَيُسْتَأْذَنُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،. قَالَ " فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ " قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو، فَصَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ وَقَالَ "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ " {
(أخرجه أحمد وصححه بعض أهل العلم)



القرآن والسنة أول مصدرين للتشريع

(كَيْفَ تَقْضِي بَا مُعَاذ؟) يعني أنت اليوم عندك قضاء، أنت اليوم ذاهبٌ كفاض ومفٍ، وسفيرٌ فيأتيك الناس، **(يَمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ)** يفتح كتاب الله وما يأمر الله به، **(فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ)** لم تجد الحكم في كتاب الله، **(أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو)** يعني ولا أقصر، أستنفذ الوُسْعَ في وصول الحكم الصحيح بالاجتهاد، والاجتهاد هو بناءٌ على النصوص ليس اجتهاداً مجرداً عن النصوص، يعني قد يأتيك شيء الحكم فيها غير موجود لكن تجهد اليوم بناءً على النصوص الموجودة، **(فَصَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ)**، فاصل هذا الحديث أخذوا منه أن القرآن الكريم في المرتبة الأولى في الحكم الشرعي، ثم تأتي السنة الصحيحة، ثم يأتي الاجتهاد الذي يُسميه الفقهاء بالقياس يعني يقيس شيئاً على شيء ويستنبط منه الحكم الشرعي وله ضوابطه، لكن هذه أيضاً في رحلة اليمين فأجبت أن أضيفها، وأشكر لكم حسن الاستماع والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.